التصغير ، فلا يتأتى من ورائه زيادة في المعنى وإنما نقص فيه ، وربما لهذا احترس ابن الأثير ، فقصر الزيادة المؤثرة في الدلالة على ما فيه معنى الفاعلية ، كما مرَّ .

ولكن يبدو أن ابن سنان رأى في التصغير وسيلةً صوتية يتبعها تغير له أهميته ، فاعتبره ضمن شرائطه في جودة اللفظة ؛ لأن مقتضيات السياق التعبيري تستدعي في بعض الأحيان هذه الصيغة ، كالتعبير عن شيء لطيف أو خفي أو قليل ، أو ما يجري مجرى ذلك ، ومثاله قول الشريف الرضي :

يُولِّعُ الطَّلُّ بُرْدَيْنا وَقَدْ نَسَمَتْ رُوَيْحَةُ الفَجْرِ بَيْنَ الضّالِ وَالسَّلَمِ

« فلما كانت الريح المقصودة هناك نسيمًا مريضًا ضعيفًا حسنت العبارة عنه بالتصغير ، وكان للكلمة طلاوة وعذوبة .» [1]

وبينما كان النقد الديني في العصر الأموي يعيب قول المخزومي :

وَغابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجو طُلوعَهُ وَرَوَّحَ رُعْيانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ

نجد ابن سنان يستحسن التصغير في « قُمَيْر » ؛ لأنه كان هلالا غير كامل ، أو أنه غاب في أول الليل وقت نوم السمر ، والقمر إذا كان هلالا غاب في ذلك الوقت بلا شك [2].

وقد أنكر المبرِّد أن يكون لصيغة التصغير دلالةٌ على التعظيم ، وأما قول الشاعر :

وَكُلُّ أُناسٍ سَوْفَ يَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْها الأَنامِلُ

(١) ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ .